مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية
المجلد 15 العدد 3 (السداسي الثاني 2023م)
ص. 561 – 582

بلاغة الأسلوب الإنشائيّ والخبريّ في أدعية الأنبياء والرّسل ودلالاتهما

The eloquence of the constructive and informative style in the supplications of the prophets and messengers and their implications

علي نايل*
[1] جامعة الجزائر بن يوسف بن خدة (الجزائر)، a.nail@univ-alger.dz

تاريخ الاستلام: 2023/03/05 تاريخ القبول: 2023/08/28 تاريخ النشر: 15 /2023/12

ملخص:

إنّ المتعمّق في مقاصد القرآن الكريم لإرشاد النّاس وهدايتهم إلى الحقّ، يرى أنّ الجانب القصصي من أبرز ما تُهتدى به القلوب الحائرة والأنفس الجائرة، ولذلك لنا في أدعية الأنبياء والرّسل نماذج فريدة يُحتذَى بها من خلال مواقفهم في حياتهم ودعوتهم لأقوامهم، فاخترنا أن ندرس تركيب هذه الدّعوات من حيث أسلوبها الإنشائيّ والخبريّ والصّيغ المتنوّعة في ذلك، محاولين استنباط أهمّ المقاصد والدّلالات الممكنة، فكيف يمكن لنا توجيه التّنوّع الحاصل في **الأسلوب والصّيغ الواردة في أدعية الأنبياء والرّسل ؟**

الكلمات المفتاحيّة : بلاغة - الأسلوب - الإنشائيّ - الخبريّ - أدعية الأنبياء والرّسل–الدّلالات.

Abstract:

One who delves deeper into the purposes of the Holy Qur’an to guide people and conduct them to the truth, he sees that the narrative side is one of the most prominent things that oppress unjust hearts and confused souls are guided by. Therefore, in the invocations of the prophets and messengers, we have unique models to follow through their positions in their lives and their call to their people. So, we have chosen studying the composition of these invocations in terms of their constructive and declarative styles, as well as the various formulas in that, trying to deduce the most important possible intentions and connotations. So, how can we direct the diversity in style and formulas contained in the invocations of the prophets and messengers?

Keywords: Rhetoric; declarative; invocations of the prophets

* المؤلف المرسل

1. مقدمة:

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على أشرف الخلق أجمعين وبعد: يُعدّ البحث في كتاب الله من أشرف الأبحاث قدرا، وأجلّها شرفا، وأرفعها منزلة، لاسيما إذا تعلّق الأمر بالجانب الإعجاز فيه، ولا شكّ أنّ من أهمّ وجوه الإعجاز في القرآن الكريم تجلّى في قوّة لغته وحسن بيانه، وإنّ لمن سحر البيان فيه جمال أسلوبه الجذّاب، الذي تنوّع في تركيب جمله بين خبر وإنشاء، ليضع كلّ لون على حسب ما يقتضيه المقام، ويتطلّبه المعنى، وما ذاك إلّا ليضيف إلى النّظم رونقا وجمالا، ويكسي المعنى دلالات وأسرارا.

ولمّا كان القرآن هو المنبع الصّافي الذي يُرجع إليه لبيان العقيدة السّليمة، وقيم الإسلام النّبيلة، فقد أعطى نصيبا وافرا لبيان حياة الأنبياء والرّسل الذين اصطفاهم الله لتبليغ دعوته، لأنّهم قدوة للنّاس ومنارة لهم، فاغتنمنا الفرصة لمحاولة إبراز مظاهر الجمال في أسلوب دعائهم، مع كشف أهمّ الدّلالات والمقاصد لكلّ لون من هذه الأساليب، وعلى هذا جاز لنا طرح السّؤال الآتي : كيف يمكن لنا توجيه التّنوّع الحاصل في الأسلوب والصّيغ الواردة في أدعية الأنبياء والرّسل ؟.

ولمحاولة الإجابة على هذا الإشكال اتّبعت المنهج الاستقرائيّ لأحصي أدعية الأنبياء والرّسل المتضمّنة للأساليب الإنشائيّة والخبريّة، مع تحليلها لاستخراج دلالاتها، مُتّبعا الخطّة التّالية:

2. تعريف الأسلوب وأنواعه :

2-1 تعريف الأسلوب

الأسلوب في اللغة هو مفرد للفظ (أساليب) وهو " الطريق والوجه والمذهب ... والأسلوب بالضّمّ : الفنّ، يقال : أخذَ فلان في أساليبَ من القول، أي: أفانين منه ".[1]

اصطلاحا: هو المنهج الذي يسير عليه المتكلّم في بناء الجمل وتركيبها، فيما يُصلحها من ألفاظ مناسبة للمعنى المقصود، أو هو: "الطّريق الذي يسلكه المتكلّم في تأليف كلامه واختيار ألفاظه، فأسلوب المتكلّم طريقه في الكلام، ومذهبه في البيان. يميزه به عن غيره، ويعرف مقداره وبراعته من خلاله سواءً في الشعر أو النثر أو السجع".[2]

وجاء في البلاغة الواضحة أنّ الأسلوب: هو المعنى المسوغ في ألفاظ مؤلّفة على صورة تكون أقرب لنيل الغرض المقصود من الكلام، وأفعل في نفوس سامعيه ".[3]

أمّا عن أسلوب القرآن الكريم، فهو الطّريقة التي اختَصَّ بها في تركيب كلامه، واختيار ما يناسبه من ألفاظٍ، وإنّ الكلام البشريّ مهما بلغ درجة رفيعة في الأسلوب فلن يستطيع مضاهات الأسلوب القرآنيّ، لأنّ مصدره إلاهيّ، بدليل ما يقع على النّفس من تأثّر عند سماعه، فمهما تكرّرت الجملة القرآنيّة فكأنّها أوّل مرة تطرق أذنك.

ولمّا نتكلّم عن الأساليب القرآنيّة في أدعية الأنبياء والرّسل فإنّنا نقصد ما تضمّن منها معنى الإنشاء والخبر، وهذا ما سنحاول دراسته عند الوقوف على أهمّ الشّواهد الممكنة في أدعيتهم.

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير ومحمّد أحمد حسب الله و هاشم محمّد الشّاذلي، دار المعارف، القاهرة، بلا ط و ت. مج 3، ج 23، ص 2058.

[2] محمّد صادق درويش، إعجاز القرآن الكريم، إشراف وتقديم : نور الدّين عتر، دار الإصلاح، ط 1، 2009م.، ص 230.

[3] علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، دار المعارف، ط1، 1999، ص 12.

2.2 تعريف الأسلوب الإنشائيّ

الإنشاء في اللّغة مصدر لفعل (أنشأ)، ومعناه الإيجاد، يُقال : أنشأَ الله الكون، أي أوجده.

وفي الاصطلاح: فقد عرّفه علماء البلاغة بأنّه " كلّ كلام لا يحتمل الصّدق والكذب لذاته، لأنّه ليس لمدلول لفظه قبل النّطق به واقع خارجيّ يطابقه أو لا يطابقه "[1]، والأسلوب الإنشائيّ قسمان: إنشاء طلبيّ، وغير طلبيّ.

مفهوم الإنشاء الطّلبيّ: عرّفه القزوينيّ بأنّه " ما يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطّلب، لامتناع تحصيل الحاصل"[2]، فيُفهم من التّعريف أنّ هذا النّوع متعلّق بطلبٍ غير حاصل في اعتقاد المتكلّم وقت طلبه، وهذا القسم متضمّنّ خمسة صيغ وهي : (الأمر والنّهي والتّمنّي والاستفهام والنّداء)، وقد يخرج عن صيغه الأصليّة إلى صيغ أخرى تُفهم من السّياق كالتّحذير والإغراء والتّرجّي والدّعاء وغيرها.

مفهوم الإنشاء الغير طلبيّ: ومن خلال تعريف إنشاء الطّلب، يتبيّن لنا في مفهوم المخالفة، أنّ الإنشاء الغير طلبيّ، ما لا يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطّلب، وإنّما " يُنشئ أمرا مرغوبا في إنشائه"[3]، وله صيغٌ كلاميّة متعدّدة، كصيغ المدح والذمّ، والعقود، والقسم، والتّعجّب، والرّجاء، وكذا، ورُبّ، ولعلّ، وكم الخبريّة.

3. تعريف الأسلوب الخبريّ:

الخبر في اللّغة مصدر لفعل (خَبرَ)، وهو " العلم بالأشياء المعلومة من جهة الخبر، وخَبَرته خُبْرًا وخُبرةً وأخبرتُ أعلمت بما حصل من الخبر ".[4]

---

[1] أحمد مطلوب، أساليب بلاغيّة، دار غريب للطّباعة والنّشر، القاهرة، مصر، ط 1، 1980، ص 107.

[2] جلال الدّين محمّد بن عبد الرّحمان بن عمر بن أحمد بن محمّد القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1424هـ/2003م، ص 108.

3 عبد الرّحمان حسن حبنّكة الميداني، البلاغة العربيّة أسسها، وعلومها، وفنونها، دار القلم، دمشق، سوريا، ط 1، 1416هـ/1996م، ج 1، ص 224.

[4] أبو القاسم الحسين بن محمّد الرّاغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ، تحقيق وضبط محمّد سيّد الكيلاني، دار المعرفة، بلا ط، بيروت ، لبنان، بلا ت، ص 141.

والأسلوب الخبريّ في الاصطلاح البلاغيّ هو طريقة في الكلام مبنيّة على إخبار المخاطب بما يحتمل الصّدق والكذب، ولذلك عُرّف الخبر بأنّه " ما يحتمل الصّدق والكذب لذاته "[1]، وهذا التّعريف يجعله يصدق على كلّ خبر، دون النّظر إلى من تكلّم به، ذلك أنّ التّعريف قُيّدَ بإضافة لفظ (لذاته) ليَخرُجَ قصد المتكلّم، ليكون الاحتمال متعلّقا بوصف الخبر في حدّ ذاته، لا في نيّة قائله، وهذا ما يجعل الخبر نوعان: صادق وكاذب، فالخبر الكاذب ما كان مطابقا للواقع والحقيقة، والخبر الكاذب ما لم يكن مطابقا للواقع والحقيقة. ولا يخلو الكلام العربيّ من أن يكون خبرا أو إنشاء، وعلى هذا الأساس بُنيت الجمل في كتاب الله - تعالى-، فإذا كان الأسلوب الخبريّ الذي هو كلّ كلام محتمل للصّدق والكذب، فالحقّ أنّ الخبر في كتاب الله سبحانه وسنّة نبيّه ﷺ الصّحيحة كلّه صدق بلا أدنى ريب، لأنّه صادر من ربّ العالمين، والسّنّة قائلها النّبيّ ﷺ لا ينطق عن الهوى بل ينطق بما أوحى إليه ربّه.

والأصل أنّ الخبر متأسّس لبيان غرضين، أوّلهما: إمّا أن يفيد المخاطب، بالحكم الذي تضمّنه الكلام، وهو جاهل له، ويسمّى هذا (فائدة الخبر)، كقوله له : رأس الحكمة مخافة الله. وثانيهما: أن يفيد المُخاطب بأنّ المتكلّم عالم أيضا بالحكم الذي يعلمه المخاطب، وقد سمعه من طرف آخر، ويسمّى هذا (لازم الفائدة)، كقوله له: لقد نجحت في مسابقة التّوظيف.

وقد يخرج الخبر عن هذ الأصل إلى أغراض أخرى[2]، تُفهم من السّياق ذكرها علماء البلاغة، كإظهار الضّعف والاسترحام وتحريك الهمّة والتّحسّر والمدح والفخر والتّوبيخ والتّحذير والإنكار والتّمنّي والنّفي والأمر والنّهي والوعد والوعيد والتّعظيم والدّعاء وما يهمّنا منها هو جوهر بحثنا متمثّلا في الدّعاء.

وإنّ المتأمّل لأساليب القرآن الكريم ليجد هذا التّنوّع البارز في صيغه، على حسب ما يقتضيه المقام، وهو ما أضاف للألفاظ والمعاني تماسكا وانسجاما، وحقّق للإعجاز نظما فريدا وبيانا عجيبا، فتجد التّاليَ لكلام الله أو السّامع له، يستمتع بهذا الكلام الطّريّ العذب، فيقع على نفسه وقلبه قبل أذنه وسمعه.

[1] السّيّد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ضبط وتوثيق وتدقيق: يوسف الصّميلي، المكتبة العصريّة، صيدا، بيروت، لبنان، ط 1، 1999م ص 55.

[2] ارجع إلى كتاب أساليب بلاغية ، أحمد مطلوب، ص 103.

ولقد نالت أدعية الأنبياء والرّسل نصيبا وافرا في جماليّات الأسلوب القرآني، متنوّعة بين خبر وإنشاء، ولا شكّ أنّ التّنوّع في الاستعمال على حسب ما يقتضيه المقام، ويستلزمه المعنى المقصود، وسنحاول الوقوف عند أهمّ شواهده، محاولين إبراز الدّلالات الممكنة من مواضع الإنشاء والخبر في أدعية الأنبياء والرّسل.

3. من شواهد الإنشاء في أدعية الأنبياء والرّسل

1.3من شواهد الأمر في أدعية الأنبياء والرّسل

الأمر هو طلب حصول الفعل على سبيل الاستعلاء والإلزام، وقد يخرج هذا المعنى عن أصله، فيُنتَزعُ منه الإلزام والاستعلاء، ليُوجّه إلى أغراض أخرى، تظهر من سياق الكلام وقرائن الأحوال، كالتّهديد والتّمنّي والإهانة والتّعجيز والتّسخير والتّسوية والإباحة والاحتقار، والالتماس والدّعاء، وهذا الأخير هو ما قصدناه بالحديث لتعلّقه ببحثنا، وقد خرج الدّعاء عن معنى الأمر لتعارضه مع مقتضيات الاستعلاء والإلزام، لأنّه طلبٌ من الأدنى إلى الأعلى، فيكون حينئذٍ الدّعاء هو طلب العبد الضّعيف الفقير، من ربّه القويّ الغنيّ على وجه التّضرّع والخضوع والمسكنة، ولعلّ ما يُظهر الفارق بين صيغ الدّعاء وبين غيره من صيغ الأمر، هو إبراز معنى الطّلب من الأدنى إلى الأعلى وهذا قيدٌ في غاية الدّقّة والصّواب، لأنّه يُبعده عن معنى الالتماس بشكل كُليٍّ تام، ثمّ يأتي بعده قيد التّضرّع والابتهال، وهو ما خصّه البلغاء بالتّقييد في تعريفهم للدّعاء، فقد ذكر القزوينيّ أنّ صيغ الأمر قد تُستعمل في غير إفادة طلب القيام بالفعل، وذكر من ذلك استعمالها للدّعاء " إذا استُعمِلتْ في طلب الفعل على سبيل التّضرّع "[1].

وهذا القيد الأخير يُعدّ أقلّ دقّة في تحديد المقصود مقارنة مع الأوّل، لأنّ التّضرّع قد تجد له معنى في مقتضيات الالتماس ولو بصورة قليلة، لأنّ " الالتماس في العرف إنّما يُقال للطّلب على سبيل نوع من التّضرّع، لا إلى حدّ الدّعاء ".[2]

[1] الخطيب القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 117.

[2] سعد الدّين مسعود بن عمر التّفتازانيّ، المطوّل، شرح تلخيص مفتاح العلوم، تحقيق : عبد الحميد هنداويّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط 3، 2013/1434، ص 427.

وممّا ورد في أدعية الأنبياء والرّسل قوله - تعالى- في دعاء سليمان: ﴿ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾ [النّمل 19]، وفي دعاء الخليل: ﴿ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ٨٣ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ٨٥ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٨٦﴾ [**الشّعراء**، 83-86]، **ودعاء النّبيّ** ﷺ: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ٨٠﴾ [الإسراء 80]، **وهذه الأدعية وغيرها، وردت بصيغة الأمر (افعل)، وقد يأتي الأمر بصيغة (تفعّل)، كقوله - تعالى- في دعاء يوسف:** ﴿ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١ ﴾ [يوسف،101]، **وقد يأتي بصيغة النّائب عن المصدر، ولكنّه لم يرد في أدعية الأنبياء والرّسل، كقوله تعالى:**﴿ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة 285]، **والمعنى** (اغفر لي).

وإذا تتبّعنا صيغ الدّعاء نجد جلّها بصيغة الأمر، وقد عُدل عن استعمال الأسلوب الخبريّ إلى الإنشائيّ متمثّلا في صيغة الأمر، وهذا لا يعني الاستعلاء في الطّلب، لأنّه كما أسلفنا طلب على وجه التّضرّع والمسكنة، نابعٌ من العبد الأدنى، مُتوجّهٌ إلى الخالق الأعلى، وإنّما قُصدَ أن " يكون تفاؤلا بالاستجابة مع السّرعة، لأنّ من شأن الأمر الحقيقي أن يُجاب على الفور "[1]، وكأنّ العبد يشعر بقربه من الله - تعالى- وقد تيقّن قلبه، واستقرّت نفسه، أنّ سؤاله عبادة يحبّها ربّه سبحانه، فقد أمره بسؤاله، ووعده بالاستجابه، والله لا يخلف وعده، فأصبحت نفسه متشوّقة لما تطلبه، ترجو عجلته، ولا تغيب عن التّطلّع إليه، فتحسّ بتحقّقه في لحظة ابتهالها، وهذا الإحساس يزيد قوّة، كلّما زاد العبد إيمانا ويقينا بخالقه.

2.3 من شواهد النّهي في أدعية الأنبياء والرّسل

من أساليب الإنشاء المعهودة، أسلوب النّهي، وهو " طلب الكفّ عن الفعل على وجه الاستعلاء "[2]، ولا يختلف حاله عن الأمر في خروجه عن أصل معناه، إلى صيغ أخرى تُفهم من السّياق القرآنيّ كالدّعاء والالتماس والإرشاد والدّوام والتّيئيس وبيان العاقبة والتّمنّي والتّهديد والتّوبيخ والكراهة والائتناس والتّحقير.

[1] محمّد إبراهيم شادي، الحوار في القرآن الكريم، خصائصه التّركيبيّة وصوره البيانيّة، دار اليقين للنّشر والتّوزيع، المنصورة، مصر، ط1، 1431هـ/2010م، ص 174.

[2] السّيّد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص 76.

وما قصدناه بالعناية هو خروجه إلى صيغة الدّعاء بقيد التّذلّل والتّضرّع من الأدنى إلى الأعلى، فيكون الدّعاء بصيغة النّهي هو: طلب الكفّ على الفعل على سبيل التّضرّع والمسكنة، ويأتي على صيغة (لا تفعل) ومن الشّواهد على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩ ﴾ [الأنبياء 89]، وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦ ﴾ [نوح، 26]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ٨٧ ﴾ [الشّعراء،87]، وقوله تعالى: ﴿ رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٩٤ ﴾ [المؤمنون 94]، فتركيب هذه الابتهالات باستعمال صيغة النّهي، يدلّ على شدّة الحاجة إلى المطلوب، ويُصوّرُ مدى الضّعف الإنسانيّ الذي لا حول له ولا قوّة إلّا بربّه سبحانه، كما يوحي بقرب الدّاعي من خالقه، وقوّة رجائه فيه، فنبيّ الله زكريّا - عليه السّلام- يُناجي ربّه وقد بلغ من الكبر عُتيّا، وامرأته عاقر لا تلد، فهو في حالة يأس واستسلام لأمر الله - تعالى-، فنادى ربّه **(لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ)**، والمعنى: "إن لم ترزقني وارثا فأنت خير الوارثين، فهو استسلام لله"[1]، ونبيّ الله نوح - عليه السّلام- لمّا رأى المكر والعناد في قومه، وأنّ دعوته لهم ما زادتهم إلّا كفرا وصدّا، فاستشعر الخطر الصّادر منهم وممّن يخلفونهم، فسأل ربّه أن لا يُبقي منهم أحدا ولا يترك لهم أثرا، فلهج بهذا الدّعاء **(رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا)**، والمعنى: لا "تترك بوجه من الوجوه أصلا ولو على أدنى الوجوه"[2]، فاستعمال النّهي في الدّعاء يُصوّر عمق سخط نوح على قومه، ورغبته الشّديدة في تعجيل العذاب لهم، فابتهل إلى ربّه ليُوجّه له" دعوته السّاحقة الماحقة، ومن أجل هذا استجاب الله دعوته، فغسل وجه الأرض من ذلك الشّرّ، وجرفَ العواثير التي لا تجرفها إلّا قوّة الجبّار القدير ".[3]

[1] أبو القاسم محمّد بن أحمد بن جزي الكلبي، التّسهيل لعلوم التّنزيل، ضبط وتصحيح محمّد سالم هاشم، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1415ه/1995م

[2] برهان الدّين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعيّ، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور، تخريج واعتناء عبد الرّزّاق غالب المهدي، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1415ه/1995م ، ج 8، ص 177.

[3] سيّد قطب، في ظلال القرآن، دار الشّروق، مصر، ط 32، 1423ه/2003م ، مج 6، ج 29، ص 3717.

أمّا دلالة استعمال النّهي في دعاء الخليل **(وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ)**، فإنّه يرسم مشهد العبد الوَجِل الخائف من عذاب ربّه، وهذا حينما انتقل في دعائه إلى طلب النّجاة يوم القيامة، خلافا لاستعمال الأمر في دعائه السّابق في قوله: **(رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (84) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ)**، فهول مشهد يوم الحساب، والحرص على السّلامة منه، استلزم الطّلب بأسلوب النّهي ليأمن من هذا الخِزي، وأصل الخزي في اللّغة الهوان، والمُخزَى هو " المُذَلُّ المحقُورُ بأمر قد لزِمَهُ بحجّة "[1]، وأمّا دعاء النّبيّ ﷺ في قوله: **(رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ، فقد جاء بعد ما أمر الله سبحانه نبيّه بأن يدعو بأن يُريَه عذاب الكافرين به، وأن ينجيه من هذا العذاب، وفي هذا الابتهال "استصحاب الخشية والتّحذير من الأمر المُعذّب من أجله"[2]، فمشهد الخوف من أن يلحقه وصفهم، استدعى استعمال النّهي في الطّلب، ليُعبّر به عن شدّة الحذر من الوقوع في أعمالهم، والوصول إلى مصيرهم، وهو تعليمٌ لأمّته ﷺ حتّى تدعو بالثّبات على الحقّ والنّجاة ممّا يوجب العذاب.

3. من شواهد الاستفهام في أدعية الأنبياء والرّسل

والاستفهام هو طلب معرفة شيء مجهول لدى السّائل، ولم يُسبق العلم به، أو نقول هو " طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل، وهو الاستخبار الذي قالوا فيه إنّه خبر ما ليس عندك ".[3]

والاستفهام شأنه شأن الأمر والنّهي، في خروجه عن معناه الأصلي، إلى معان كثيرة متنوّعة متداخلة في بعضها البعض، تُدرك من سياق الكلام وقرائن الأحوال ومن الذّوق السّليم، وتُتصيّد بفهم الدّلالات الخفيّة في التّعبير، والحال أنّ معنى الاستفهام يبقى موجود في الاستعمال الكلامي، وإنّما تُضاف إليه معان ودلالات تدلّ عليه، ومن هذه المعاني الدّعاء، فيكون بهذا المعنى: طلب العلم بالمجهول صادرا من العبد الضّعيف الأدنى، مُوجّها إلى الإله القويّ الأعلى، ومن الشّواهد على ذلك ما يلي:

---

[1] ابن منظور، لسان العرب، مج 2، ج13، ص 1155.

[2] أبو محمّد عبد الحق بن عطيّة الأندلسيّ ، المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، مطبعة دار الخير، بيروت، ط 2، لبنان، 1428هـ/2007م، ج 18، ص 318.

[3] أحمد مطلوب، أساليب بلاغيّة، ص 118.

1/: دعاء موسى -عليه السّلام- في قوله تعالى: ﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ ﴾ [الأعراف 155]، وقد وقع الاستفهام في قوله **(أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا)**، فأفاد الاستفهام معنى الدّعاء بصيغة النّهي، والمعنى: لا تهلكنا يا ربّنا بما فعل السّفهاء منّا، فالدّعاء بهذا الاستعمال أفاد مزيدا من الاستعطاف والاسترحام مع الابتهال في ثوب العبد المتذلّل أمام ربّه، الرّاجي رحمته، الخائف من عذابه، كما يُوحي بقرب كليم الله من خالقه - عزّ وجلّ- وعظم يقينه به، ويُضيف الشّوكانيّ أنّ الاستفهام استعمل " للجحد أي : لست ممّن يفعل ذلك، قاله ثقة منه برحمة الله، والمقصود منه الاستعطاف والتّضرّع ".[1]

2/ ومن الشّواهد أيضا دعاء الخليل - عليه السّلام- في قوله: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ ﴾ [البقرة 260]، فنلحظ أنّ هذا الدّعاء جاء عن طريق الاستفهام، استفتحه الخليل بنداءه خالقه بلفظ (رَبِّ) لما فيه من "حسن استلطاف واستعطاف للسّؤال "، وهذا يُظهر جليًّا الغرض من الاستفهام، وأنّه استُعمل طلبا من الأدنى إلى الأعلى، فقد رغب الخليل في أن يصل إلى درجة عين اليقين، لاطمئنان قلبه وليس شكًّا في دينه، كما نلمس في الدّعاء زيادةٌ في القرب من الله -تعالى- وعِظم رجائه وحسن الظّنّ به، وهذا ما جعله يجترئ بهذا السّؤال ليتيقّن من مشهد البعث وهو الإحياء، وكأنّه يشاهده، وهذا " لفرط محبّته الوصول إلى مرتبة المعاينة في دليل البعث رام الانتقال من العلم النّظريّ البرهانيّ، إلى العلم الضّروري، فسأل الله أن يُريه إحياء الموتى بالمحسوس ".[2]

[1] محمّد بن علي بن محمّد الشّوكاني، فتح القدير الجامع بين فنّي الرّواية والدّراية من علم التّفسير، مراجعة يوسف الغوش، دار المعرفة، ط 4، بيروت، لبنان، 1428ه/2007م.

[2] محمّد الطّاهر بن عاشور، التحرير والتّنوير، الدّار التّونسيّة للنّشر، ط 1، 1984، تونس، ج 3، ص 38.

وفي الآية السّابقة لدعاء الخليل، نلمس الاستفهام فيما قاله الله -تعالى- حكاية عن نبيّه عزير في قوله: { **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا** }، فما وقع منه من سؤال لم يُرِد منه التّشكيك في قدرة الله على الإحياء، وإنّما هو استفهام استُعمِل " اعترافا بالقصور عن معرفة طريق الإحياء، واستعظاما لقدرة المُحيي "[1]، وتوجيه الاستفهام بهذا المعنى بناء على قول أنّ السّائل رجل مؤمن، أو هو عزير، وإلّا فالمؤمن لا تخفى عليه قدرة الخالق في كلّ شيء أراده، لأنّ الإيمان بها من مقتضيات التّوحيد الخالص.

3/ومن الشّواهد أيضا قوله تعالى حكاية على نبيّه زكريّا: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ [آل عمران 40]، ولفظ (أنّى) اسم استفهام منصوب على الحال، والمعنى كيف أُرزَق بولد وامرأتي عاقر، وأنا شيخ كبير، والحال أنّ هذا الاستفهام لم يُرِد به التّشكيك في قدرة الله، وإنّما استبعد وقوع ذلك وهو على هذه الحال التي هي مخالفة للعادة المعهودة، بناء على ما وصل إليه من يأسٍ في مطلوبه بالنّظر إلى حاله، أمّا رجاؤه في ربّه خلاف ذلك، فجاء كلامه " على سبيل الاستعظام لقدرة الله - تعالى- يحدث ذلك عند معاينة الآيات، وهو يرجع معناه إلى ما قاله بعضهم إنّ ذلك من شدّة الفرح، لكونه كالمدهوش عند حصول ما كان مستبعدا له عادة ".[2]

4. من شواهد النّداء في أدعية الأنبياء والرّسل

النّداء هو طلب من المتكلّم لإجابة أمر، أو ليُقبل المُخاطَب عليه، باستعمال حرف من حروفه، سواء ذُكر أو فُهم معناه في الجملة، أو هو " طلب المتكلّم إقبال المُخاطب عليه بحرف نائب مناب (أنادي)، المنقول من الخبر إلى الإنشاء "[3]، كما عُرّف أيضا بأنّه "طلب الإجابة لأمر ما بحرف من حروف النّداء يَنوبُ مناب (أدعو) ".[4]

---

[1] ناصر الدّين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمّد البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التّأويل، إعداد وتقديم محمّد عبد الرّحمان المرعشلي، دار إحياء التّراث العربي، ط1، بيروت لبنان، بلا تج 1، ص 156.

[2] أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، البحر المحيط، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1413هـ / 1993م.

[3] بكري شيخ أمين، البلاغة العربيّة في ثوبها الجديد، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 6، 1999م، ج 1، ص 106.

[4] عبد الرّحمان حسن حبنّكة الميدانيّ، البلاغة العربيّة أسسها، وعلومها، وفنونها، ج 1، ص 24.

والنّداء يُعدّ من أكثر الاستعمالات اللّغويّة للدّعاء وقد أشرنا إليه في تعريف الدّعاء واستعمالاته اللّغويّة، لأنّ " الدّعاء كالنّداء، إلّا أنّ النّداء قد يُقال بيا أو أيا ونحو ذلك من غير أن يُضمَّ إليه الاسم، والدّعاء لا يكاد يُقال إلّا إذا كان معه الاسم، نحو: يا فلان، وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر".[1]

وعند تتبّعنا لأدعية الأنبياء والرّسل نجد جلّها مستفتحة بالنّداء، لما فيه من الاستلطاف والاسترحام، ولما يُصوّره من مشهد الضّراعة والمسكنة بين يدي العزيز الكريم، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر، قول الله - تعالى- على لسان إبراهيم في دعائه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [إبراهيم 36/35]، وقوله على لسان موسى- عليه السّلام- في دعائه: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ ﴾ [طه 26]، وفي دعاء يوسف - عليه السّلام –أيضا: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [يوسف 33]، كما أنّ النّداء في أغلبه محذوفٌ لدلالة السّياق عليه، ويُوجّه الحذف أنّه يُعبّر عن شعور الدّاعي بقرب من المدعُوّ منه، ممّا يسكب في قلبه الاستئناس والتّيقّن بإجابة دعوته، ولذلك فإنّ من أهمّ صيغ النّداء في الدّعاء " إسقاط حرف النّداء المشير إلى قُرب المُنادَى، وأنّه حاضر مع المُنادِي غي غافل عنه، فدلّ على استشعار الرّاغب هذا المعنى ".[2]

كما نلمس في أسلوب النّداء اقترانه بلفظ (الرّبّ) أكثر من الألفاظ الأخرى للخالق سبحانه، كلفظ (الله)، لما يدلّ عليه اللّفظ من مقتضيات الرّبوبيّة من خلق ورزق وتصرّف في خلقه وملكه كيما يشاء ومتى يشاء، وهذا موافق لمقاصد الدّعاء ومستلزماته، فكلّ ما يطلبه العبد، لا يملك خزائنه والتّصرّف فيه إلّا الحكيم الخبير، ولمّا كان الدّعاء عبادة عظيمة، فإنّ مناجاة الخالق ومناداته بلفظ الرّب من مقتضيات توحيد الرّبوبيّة، ولهذا نلحظ أنّ " كثرة مجيء النّداء باسم الرّبّ المقتضي للقيام بأمور العباد وإصلاحها، فكأنّ العبد متعلّقٌ بمن شأنه التّربية والرّفق والإحسان، قائلا : يا من هو المصلح لشؤوننا على

[1] الرّاغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن، ص 170 .

[2] أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمّد اللّخميّ الشّاطبيّ، الموافقات، تحقيق : أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار بن عفّان، بلا ط و ت، ج 4، ص 202.

الإطلاق أتمّ لنا ذلك بكذا، وهو مقتضى ما يدعو به، وإنّما أتى (اللّهمّ) في مواضع قليلة، ولمعان اقتضتها الأحوال ".[1]

وإذا تأمّلنا هذا الابتهال الخاشع من خليل – تعالى- في قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [إبراهيم 35-38]، فإنّا نجد هذا التّلوّن العجيب في النّداء، فالآية الأولى والثّانية أُضيف لفظ (ربّ) إلى ضمير المفرد المتكلّم، ثمّ تحوّلت الإضافة إلى جمع المتكلّم (رَبَّنَا)، فأفاد التّنوّع في التّكرار زيادة في التّضرّع والخشوع، كما أفاد " هذا التّكرار البليغ المُضاف إلى الدّاعين إلحاح يقتضيه مقام الدّعاء والتّضرّع واللّجوء والابتهال إلى الله سبحانه وتعالى ".[2]

كما يُعبّر تكرار لفظ (رَبَّنَا) في الدّعاء أهمّية الالتجاء إلى الله وحده ونفعه العظيم لكلّ المؤمنين، وأنّ الله قريب منهم جميعا يجيب دعاءهم على قدْر صدقه وإخلاصهم، مثلما يُقدّم دلالة وحدة المسلمين واجتماعهم على توجيه الابتهال لخالقه، لاسيما اذا اجتمعوا في أعظم البقاع، وفي أفضل الأزمنة، كصعيد عرفات، كما " يُصوّر حال المؤمنين مع ربّهم، وإدراكهم لضعفهم وعجزهم، وحاجتهم إلى رحمته وعفوه، وإلى مدده وعونه ... في نغمة وادعة واجفة تُصوّر بإيقاعاتها وجيب القلب ورفرفة الرّوح ".[3]

[1] الشّاطبيّ، الموافقات، ج 4، ص 203.

[2] يحي بن محمّد إبراهيم عطيف، من بلاغة الأدعية في القرآن الكريم، مجلّة جامعة أمّ القرى لعلوم الشّريعة واللّغة العربيّة وآدابها، ج 15، ع 26، 1424هـ، ص 723.

[3] سيّد قطب، في ظلال القرآن، مج 1، ج 3، 345.

1.3 من شواهد الأسلوب الخبريّ في أدعية الأنبياء والرّسل

من الأغراض التي أخرجت الأسلوب الخبريّ عن معناه الأصليّ الدّعاء وهو كثير في الكلام العربيّ، وعند إمعان النّظر في الاستعمال القرآنيّ للدّعاء عن طريق الخبر، نجد أنّه يختلف عن الإنشاء لانفراده بمزيّة داخليّة، منبعثة من نفس الدّاعيّ، تُصوّر رغبته الشّديدة في الابتهال إلى الله - تعالى- وهو في غاية الصّدق والأدب والتّضرّع والتّذلّل والمسكنة، مُظهرا تفاؤله في نيل مبتغاه وتحقيق رجاه، لأنّ " في استخدام الخبر في الدّعاء معنى التّفاؤل باستجابة الله الدّعاء، وتحقّقه في الواقع حتّى يكون خبرا ".[1]

وقد يُوضع الخبر موضع الطّلب في الأمر أو التّرك، فيتضمّن بذلك معنى الإنشاء، لإفادة معان معيّنة كالتّفاؤل وإظهار الفقر والتّضرّع، أو لبيان الحرص والأدب في الدّعاء وغير ذلك، وإلى هذه الأغراض وغيرها استعمل الدّعاء "بلفظ الخبر الحاصل تحقيقا لثبوته، وأنّه ممّا ينبغي أن يكون واقعا ولا بدّ، وهذا هو المشهور ".[2]

1. شواهد الخبر في دعاء أيّوب :

ممّا ورد من الخبر في دعاء أيّوب - عليه السّلام- قوله تعالى: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأنبياء 84]، فهذه الآية الكريمة ركّبت تركيبا إسميّا لتحمل بين ثناياها خبر أيّوب ودعائه الخاشع، فنداءه ربّه سبحانه، وتصويره لحاله على وجه التّضرّع يدلّ على توجّهه لخالقه بالدّعاء، وإن لم يُصرّح بذلك بما يفيد الطّلب أو النّهي، ولكنّه عرّض بسؤال الرّحمة فذكر نفسه بما يُوجب الرّحمة، وأثنى على ربّه بأبلغ صفات الرّحمة، وفي هذا أدبٌ رفيعٌ في الدّعاء، أظهر فيه حياءه من الله سبحانه، ولذلك اختير الأسلوب الخبريّ لتناسبه مع هذا المقصد، فكان نداؤه لربّه " ليس تصريحا بالدّعاء، ولكنّه ذكر نفسه بما يوجب الرّحمة، ووصف ربّه بغاية الرّحمة ليرحمه، فكان ذلك من حسن التّلطّف ما ليس في التّصريح بالطّلب ".[3]

---

[1] عبد الرّحمان حسن حبنّكة الميدانيّ، البلاغة العربيّة أسسها، وعلومها، وفنونها، ج 1، ص 177.

[2] بدر الدّين محمّد بن عبد الله الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن، تحقيق : محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار مكتبة التّراث، القاهرة، مصر، بلا ط و ت، ج 3، ص 449.

[3] ابن جزي، التّسهيل لعلوم التّنزيل، ج 2، ص 42.

وآية الاستجابة أكّدت الغرض من الخبر في الآية وهو دعاء أيّوب وابتهاله، فقال – تعالى: ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤ ﴾.

2. شواهد الخبر في دعاء امرأة عمران :

ومن الشّواهد أيضا ما جاء في دعاء امرأة عمران في قوله – تعالى: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦ ﴾ [آل عمران 36]، فقولها (رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى) جملة خبريّة المراد بها فائدة الخبر، أفادت التّحسّر لا الإخبار، لأن عِلمَ الله سابق لعلمها بما وضعت، فكان في كلامها شيء من التّضرّع والانكسار والتّلهّف لما تمنّته من ولادة ذكر يعينها، لما رأت في الذّكر من القوّة والعطاء، فكان قولها هذا " تحسّرا ذاكرة وصف الإحسان استمطارا للامتنان ".[1]

وفي قوله - تعالى - (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ) خبر المراد به لازم الفائدة، فالإخبار بشيء عادة يُوجّه لمن يجهله، وهي تعلم يقينا علم الله الواسع له ولغيره، فبيّن الله علمه بما وضعت ليكون ذلك إلهاما لقلبها، وجبرا له، وأنّه سيتقبّل نذرها، ليعطيها ما أرادت من قوّة وكمال إعانة في هذه الأنثى التي سيحصل معها خير عظيم، حيث أنبتها نباتا حسنا، وهيّأها لتكون أمًّا للمسيح عيسى- عليه السّلام-.

وقوله (وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)، جاء هذا الدّعاء جملة إسميّة خبرها الفعل المضارع (أُعِيذُهَا)، الذي يفيد التّجدّد والاستمرار كما هو معلوم، وهذا يُعطي لدعائها دلالة تجدّد واستمرار ما أرادت من " الاستفادة دون انقطاعها هذا بخلاف (وَضَعَتْهَا، وسَمَّيْتُهَا) حيث أتى بالخبرين ماضيين لانقطاعهما، وقدّم المعاذ به على المعطوف الآتي اهتماما به ".[2]

[1] البقاعيّ، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور، ج 3، ص 71.

[2] محمود صافي، الجَدْولُ في إعراب القرآن وصرفه وبيانه، دار الرّشيد، بيروت، لبنان، ط 2، 1416هـ/1995م، مج 2، ج3، ص 164.

3. شواهد الخبر في دعاء موسى

وممّا ورد أيضا من الدّعاء بالأسلوب الخبريّ قوله -تعالى- حكاية على نبيّ الله موسى- عليه السّلام- في موضعين، الأوّل: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ١٧ ﴾ **[القصص 17]**، يُحتمل أن يكون في الآية قسمٌ، وجوابه محذوف، تقديره: أقسم بإنعامك عليّ بالمغفرة لأتوبنّ، ويَجوز أن يكون الكلام استعطافا يحمل قُصِد به الدّعاء " كأنّه قال: ربّ إن عصمتني بحقّ ما أنعمت عليّ من المغفرة، فلن أكون إن عصمتني ظهيرا للمجرمين ".[1]

أمّا الموضع الثّاني في قوله – تعالى: ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤ ﴾ [القصص 24]، جاء هذا الدّعاء الخاشع بأسلوب خبريٍّ، لهج فيه موسى بالابتهال إلى ربّه وهو يصف حالهّ وفي هذا زيادة في التّضرّع والخشوع، ووجه الدّلالة على تضمّن الخبر معنى الدّعاء لأنّه " عدى فقيرا باللّام لأنّه ضمن معنى سائل وطالب "[2]، وهذا الأسلوب الخبريّ أضاف للدّعاء وصفا صادقا عميقا لحال نفس موسى الضّعيفة إلى ربّها، الفقيرة إليه، وفيه تعبيرٌ على وحدته ووحشته وحزنه، كما يشعر بالتّفاؤل فيما يأتيه من الفرج والخير، وهو ينادي ربّه - عزّ وجلّ - بأعذب ابتهال، ولسان الحال يقول : إنّي مفتقر للخير الذي تكرمني به، وتتفضّل عليّ به، وهذا " سؤال منه بحاله، والسّؤال بالحال أبلغ من السّؤال بلسان المقال ".[3]

فنفسيّة كليم الله المرهفة التي تأثّرت بما سبق من له أحداث مؤلمة، دعته لأن يبتهل إلى خالقه بهذا الأسلوب الذي هو في غاية الرّقّة والأدب والخشوع، بعدما آوى إلى الظلّ مستريحا بعد تعبه الجسديّ والنّفسيّ، وكأنّنا" نسمع من خلال التّعبير رفرفة هذا القلب والتجاؤه إلى الحمى الآمن، والرّكن الرّكين، والظّلّ الظّليل، نسمع المناجاة القريبة والهمس الموحي، والانعطاف الرّقيق، والاتّصال العميق ".[4]

---

[1] أبو القاسم محمود بن عمر الزّمخشري، الكشّاف، تحقيق علي محمّد عوض، مكتبة العبيكان، ط1، الرّياض - السّعوديّة ، 1418ه/1998، ج 4، ص 488.

[2] محمّد فخر الدّين الرّازي، التفسير الكبير، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط 1، 1401ه/1981م ج 24، ص 240.

[3] عبد الرّحمان ناصر السّعدي ، تيسير الكريم الرّحمان في تفسير كلام المنّان، تحقيق : سعد بن فوّاز الصّميل، دار بن الجوزي، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط 1، 1422ه، مج 6، ص 1333.

[4] سيّد قطب، في ظلال القرآن، ج 20، ص 2686.

4. شواهد الخبر في دعاء زكريّا :

وممّا ورد أيضا ما جاء في دعاء زكريّا في قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ٤ ﴾ [مريم 4]، في هذه الجملة الخبريّة يُظهر زكريّا تضرّعه بمناداة ربّه بما يُشعر القرب منه، مستحضرا مشاعر الاستعطاف والاسترحام، فاستعماله للخبر في ابتهاله ناسب وصف حاله، لما حصل له من ضعف في عظمه، واشتعال شعر رأسه شيبا ، دلالة على كبر سنّه، فبهذا الوصف الرّقيق لحاله مهّد لمناجات خالقه، لتكون "هذه كيفيّة دعائه وتفسير ندائه"[1]، ثمّ ختم كلامه بقوله (وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا) والمعنى: " قد سعدت بدعائي لك فيما تقدّم، فاستجب لي في هذا، فتوسّل إلى الله بإحسانه القديم إليه ".[2]

5. شواهد الخبر في دعاء يوسف:

ومن شواهد الدّعاء بأسلوب الخبر ما ورد في دعاء يوسف الصّدّيق: ﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ ﴾ [يوسف 101]، وهذا الدّعاء منه – عليه السّلام – بعدما حمد الله معترفا بنعمه عليه من إيتائه الملك وتعليمه تأويل الأحاديث، تضرّع إلى ربّه سبحانه، والمعنى المُساق من الآية: أي يا ربّ أنت من تتولّاني بالحفظ والعناية وبإيتاء النّعمة، فكن وليّي في الدّنيا والآخرة، فنلحظ أنّ الآية جاءت في قالب الخبر الذي أُريد به الدّعاء، لأنّها تُعدُّ " من قبيل الخبر في إنشاء الدعاء، وإن أمكن حَمْله على الإخبار بالنّسبة لولاية الدّنيا، وقيل لإثباته ذلك الشّيء لولاية الآخرة ".[3]

[1] أبو حيّان الأندلسيّ، البحر المحيط، ج 6، ص 163.

[2] ابن جزي، التّسهيل لعلوم التّنزيل، ج 2، ص 4.

[3] ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، ج 13، ص 59.

6. شواهد الخبر في دعاء يونس :

ومنه أيضا دعاء يونس وهو في بطن الحوت في **قوله:** ﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ ﴾ [الأنبياء 87]، فنداؤه في ظلمات اللّيل والبحر وبطن الحوت، هو تصويرٌ لحال العبد النّادم الخاشع، بدأه بإقراره كمال الألوهيّة لله، مع تنزيهه عن كلّ عيب ونقص، ومعترفا بتقصيره وظلمه لنفسه، وفي هذا كلّه تعريض بالدّعاء بالمغفرة والرّحمة، مُظهرا معاني الاستعطاف والاسترحام، ولقد أضاف الأسلوب الخبريّ قوّة في الوصف وتأكيدا لحال النّفس الوجلة، فصوّر الدّعاء " مبالغة في اعترافه بظلم نفسه، فأسند إليه فعل الكون الدّال على رسوخ الوصف، وجعل الخبر أنّه واحد من فريق الظّالمين، وهو أدلّ على أرسخيّة الوصف ".[1]

7. شواهد الخبر في دعاء النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم –:

ومن أمثلة الخبر ما علّمه ربّنا - عزّ وجلّ - لنبيّه ﷺ في قوله: ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ١٢٩ ﴾ [التّوبة 129]، والمعنى: إن أعرضوا عن الإيمان، وصدّوا دعوتك، فادعوا بقولك (حَسْبِيَ اللَّهُ)، وهذه جملة خبريّة، أصل ترتيبها (الله حسبي)، وقد أُريد بها الدّعاء، بمعنى، يا ربّ أنت كافيّ في جميع أموري، فتولّني بنصرك وحفظك ورعايتك، ثمّ ختم دعاءه بالثّناء على ربّه، في ألوهيّته وربوبيّته، فهو الإله المستحقّ للعبادة وحده دون سواه، وهو ربّ العرش العظيم.

ومن الأمثلة أيضا قوله-تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴾ [الفرقان 30]، فهذا ابتهال من رسول الله ﷺ إلى ربّه سبحانه بلسان العبد الشّاكي له إعراض قومه، المتأسّف على حالهم مع القرآن من هجر وصدٍّ وكيدٍ، فناسب الخبر مناجاته لربّه سبحانه، ووصفه حالهم مع الحقّ الذي جاء به إليهم، قال أبو حيّان: "والظّاهر أنّ دعاء رسول الله ﷺ ربّه، وإخباره بهجر قومه قريش القرآن هو ممّا جرى له في الدّنيا، بدليل إقباله عليه مسلّيا مؤانسا بقوله (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ) وأنّه هو الكافي في هدايته ونصره، فهو وعد منه بالنّصر ".[2]

[1] ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، ج 17، ص 132.

[2] أبو حيّان الأندلسيّ، البحر المحيط، ج 6، ص 455.

المطلب الثّامن: شواهد الخبر في دعاء نوح:

ومن الشّواهد أيضا دعاء نوح في قوله: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾[نوح 45]، وفي هذا النّداء استلطاف واستعطاف من نوح لربّه - عزّ وجلّ - يذكّره فيه بوعده أن يُنجّي أهله، وابنه منهم، وقد أظهر هذا الأسلوب أدبا رفيعا في الدّعاء، حيث أنّه لم يُصرّح باستعمال الإنشاء في مطلوبه، فردّ الله عليه ليبيّن له أنّ ابنه ليس من أهله وأنّ كفره هو من أهلكه، وهذا الدّعاء كما قال أبو السّعود " على طريقة دعاء أيّوب عليه الصّلاة والسّلام في قوله (أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) ".[1]

الخاتمة:

وفي ختام هذه الورقة البحثيّة، نخلص إلى أنّ الأسلوب القرآني، بتنوّع صيغه وأغراضه ودلالاته قد أعطى مزيّة كبيرة للنّظم، تُضاف إلى الحقل الإعجازيّ، وتزيد الدّارس للقرآن يقينا أنّه كتاب عزيزٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وممّا سبق ذكره يمكن لنا الخروج بنتائج نوجز أهمّها فيما يلي:

1/ أكثر الأساليب الواردة في الدّعاء عموما، وفي أدعية الأنبياء خصوصا، جاءت عن طريق الإنشاء، وصيغة الأمر أكثرها ذكرا ، ثمّ تليها صيغة النّهي، وبدرجة أقل صيغة الاستفهام.

2/ إنّ مدار كثرة الدّعاء بأسلوب الأمر ترجع إلى المزيّة التي يُضيفها للنّظم القرآنيّ، حيث أنّ كل أسلوب يُستعمل فيما يصلح له، فمن شأن الأمر أن يُفضي إلى اللّيونة والخفّة في النّطق، ممّا يعكس الحالة النّفسيّة للدّاعي، وما ينتج عنها من خشوع وتضرّع، وشوقٍ ولهفٍ إلى نيل المطلوب.

3/ تنوّع الاستعمال في أساليب الأدعية، فتجد تارة الآية تحمل صيغة الأمر، ومرّة النّهي، ومرّة أخرى تجمع بينهما، ومرّة يُعطف الخبر على الإنشاء والعكس، وهذا ما يُضيف للنّظم رونقا وجمالا، ويُلفت الانتباه إلى حرص الأنبياء والرّسل على مناجات ربّهم بكلّ الوسائل الممكنة استعطافا منهم واسترحاما، لنيل مغفرته ورضوانه.

[1] أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم، ج 3، ص 50.

4/ الدّعاء بالأسلوب الخبريّ يعبّر في أكثره على ما يختلج في الصّدور من مشاعر وأحاسيس منبعثة من نفس الدّاعي المرهفة، كما يبثّ فيها الأمل والتّفاؤل بالاستجابة، ويعكس الأدب الرّفيع والحياء الصّادق الذي يتحلّى به الدّاعي، لعدم تصريحه بطلب مبتغاه، مثلما لمسنا ذلك في دعاء أيّوب - عليه السّلام- كما يُصوّر أحيانا الشّعور بالتّقصير في حقّ المنعم.

5/ يعتمد الأسلوب الخبريّ على الجملة الإسميّة في بيان حاجة الأنبياء والرّسل إلى ربّهم لتحقيق متطلّباتهم الدّنيويّة والأخرويّة، لما فيها من تأكيد المعنى وترسيخه أكثر من الجملة الفعليّة، ولما فيه من إظهار الحرص على نيل المطلوب بإخلاص الدّعاء للمدعوّ سبحانه.

6/ دعاء الأنبياء والرّسل شأنه شأن كلّ كلام الله – تعالى- لا يخرج عن أسلوبين اثنين، إمّا الإنشاء أو الخبر، وهذا التّنوّع الحاصل بين الأسلوبين لا يُعطي المزيّة لأحدهما دون الآخر، بل كلاهما له جماليّته، وإنّما يُستعمل كلّ واحد منهما فيما يتناسب مع المعنى والدّلالة المقصودة، وهذا ما أكسب كتاب الله حلّة متميّزة، ذلك أنّ من وجوه إعجاز القرآن، " أنّه بديع النّظم عجيب التّأليف، متناه في البلاغة إلى الحدّ الذي يعلم عجز الخلق عنه ".[1]

[1] أبو بكر محمّد بن الطّيّب الباقلّانيّ، إعجاز القرآن الكريم، تحقيق السّيّد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، بلا ط و ت، ص 51.

قائمة المصادر والمراجع:

1-القرآن الكريم برواية حفص عن قراءة عاصم.

2-ابن منظور، لسان العرب، أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم ، لسان العرب، تحقيق : عبد الله علي الكبير و محمّد أحمد حسب الله و هاشم محمّد الشّاذلي، دار المعارف، القاهرة.

3-أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمّد اللّخميّ الشّاطبيّ، الموافقات، تحقيق : أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار بن عفّان، بلا ط و ت.

4.أبو السّعود بن محمّد العمادي الحنفي، إرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، مطبعة السّعادة، بلا ط و ت، الرّياض، السّعوديّة .

5-أبو القاسم الحسين بن محمّد الرّاغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ، تحقيق وضبط محمّد سيّد الكيلاني، دار المعرفة، بلا ط، بيروت ، لبنان، بلا ت.

6-أبو القاسم محمّد بن أحمد بن جزي الكلبي، التّسهيل لعلوم التّنزيل، ضبط وتصحيح 7-7-محمّد سالم هاشم، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1415ه/1995م.

8-أبو القاسم محمود بن عمر الزّمخشري، الكشّاف، تحقيق علي محمّد عوض، مكتبة العبيكان، ط1، الرّياض - السّعوديّة ، 1418ه/1998.

9-أبو بكر محمّد بن الطّيّب الباقلّانيّ، إعجاز القرآن الكريم، تحقيق السّيّد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، بلا ط و ت.

10-أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي ، البحر المحيط ، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ، 1413ه / 1993م.

11-أبو محمّد عبد الحق بن عطيّة الأندلسيّ ، المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، مطبعة دار الخير، بيروت، ط 2، لبنان، 1428ه/2007م.

12-أحمد مطلوب، أساليب بلاغيّة، دار غريب للطّباعة والنّشر، القاهرة، مصر، ط 1، 1980.

13-بدر الدّين محمّد بن عبد الله الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن، تحقيق : محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار مكتبة التّراث، القاهرة، مصر، بلا ط و ت.

14-برهان الدّين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعيّ، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور، تخريج واعتناء عبد الرّزّاق غالب المهدي، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1415ه/1995م.

15-بكري شيخ أمين، البلاغة العربيّة في ثوبها الجديد، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 6، 1999م.

16-جلال الدّين محمّد بن عبد الرّحمان بن عمر بن أحمد بن محمّد، الإيضاح في علوم البلاغة، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1424ه/2003م.

17-سعد الدّين مسعود بن عمر التّفتازانيّ، المطوّل، شرح تلخيص مفتاح العلوم، تحقيق : عبد الحميد هنداويّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط 3، 2013/1434.

18-السّيّد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ضبط وتوثيق وتدقيق: يوسف الصّميلي، المكتبة العصريّة، صيدا، بيروت، لبنان، ط 1، 1999م.

19-سيّد قطب، في ظلال القرآن، دار الشّروق، مصر، ط 32، 1423ه/2003م.

عبد الرّحمان حسن حبنّكة الميداني ، البلاغة العربيّة أسسها، وعلومها، وفنونها، دار القلم، دمشق، سوريا، ط 1، 1416ه/1996م.

20-عبد الرّحمان ناصر السّعدي ، تيسير الكريم الرّحمان في تفسير كلام المنّان، تحقيق : سعد بن فوّاز الصّميل، دار بن الجوزي، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط 1، 1422ه.

21-علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، دار المعارف، ط1، 1999.

22-محمّد إبراهيم شادي، الحوار في القرآن الكريم، خصائصه التّركيبيّة وصوره البيانيّة، دار اليقين للنّشر والتّوزيع، المنصورة، مصر، ط1، 1431ه/2010م.

23-محمّد الطّاهر بن عاشور، التحرير والتّنوير، الدّار التّونسيّة للنّشر، ط 1، 1984، تونس.

24-محمّد بن علي بن محمّد الشّوكاني، فتح القدير الجامع بين فنّي الرّواية والدّراية من علم التّفسير، مراجعة يوسف الغوش، دار المعرفة، ط 4، بيروت، لبنان، 1428ه/2007م.

25-محمّد صادق درويش، إعجاز القرآن الكريم، إشراف وتقديم : نور الدّين عتر، دار الإصلاح، ط 1، 2009م.

26-محمّد فخر الدّين الرّازي، التفسير الكبير، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط 1، 1401ه/1981م.

27-محمود صافي، الجَدْولْ في إعراب القرآن وصرفه وبيانه، دار الرّشيد، بيروت، لبنان، ط2، 1416ه/1995م.

28-ناصر الدّين أبو الخير عبد اللّه بن عمر بن محمّد البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التّأويل، إعداد وتقديم محمّد عبد الرّحمان المرعشلي، دار إحياء التّراث العربي، ط1، بيروت لبنان، بلا ت.

29-يحي بن محمّد إبراهيم عطيف، من بلاغة الأدعية في القرآن الكريم، مجلّة جامعة أمّ القرى لعلوم الشّريعة واللّغة العربيّة وآدابها، ج 15، ع 26، 1424ه.